الصباح الإسلامية
09
العدد 2484 - السنة التاسعة
الأحد 29 شعبان 1437 - الموافق 5 يونيو 2016
Sunday 5 June 2016 - No.2484 - 9th Year

إعداد : ياسر السيد

الزراعة .. من منظور إسلامي

العرب هم أمة القدم من اسمها الذي تعرف به اليوم؛ لأنها على أرجح الأقوال أرومة الجنس السامي التي تفرع منها الكلدانيون والأشوريون والكنعانيون والعراقيون وسائر الأمم السامية التي سكنت بين النهرين وفلسطين وما يحيط بفلسطين من بادية وحاضرة، وقد تتصل بها الأمة الحبشية بصلة النسب القديم مع اختلاط بين السامية والحامية [1].

ويرى الباحثون أن أسلاف العرب كانوا يتمتعون بحضارة أصيلة، ويقطنون الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية، ولكن بسبب تزايد عدد السكان وتعرض تلك المنطقة لتغيرات مناخية سيئة اضطر سكان الجنوب إلى الخروج من بلادهم على شكل موجات متعاقبة، فاتجه بعضهم شرقًا إلى بلاد الرافدين، ومنهم من توجه شمالًا، وبقي في وسط الجزيرة قبائل حافظت على كيانها واستقلالها وحرمتها ولغتها [2].

ومن البدهي أن عرب وسط الجزيرة لم يهتموا بالزراعة وكانوا يحصلون على المنتجات الزراعية التي يحتاجونها عن طريق التجارة وتبادل السلع، كما كانت شجرة النخيل أثمن النباتات لديهم لأنها تنمو في الواحات المبعثرة بين كثبان الرمل، فتعطيهم أطيب التمر بادني جهد وأقل ماء، أما القاطنون في أطراف الجزيرة -وخاصة في الحجاز واليمن والعراق وبلاد الشام- فكانوا على جانب كبير من الخبرة في شؤون الزراعة والعناية بالأشجار المثمرة واستخراج المياه، لذلك لم تزل بقاع اليمامة إلى ما بعد الإسلام مشهورة بالمراعي الواسعة، والعيون والأمطار الغزيرة والمروج المعشبة التي تخلقت مما هو أخصب منها وأعمر بالإنسان والحيوان في أقدم الزمان، وقد لاحظ الرحالة الألماني شوينفرت أن القمح والشعير يجدا في حالتهما الأبدة في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستأنس في مصر والعراق [3].

وقد اكتشفت في أرض اليمن كتابات بالخط المسند، تعتبر قوانين صدرت عن الحكومات اليمنية قبل الإسلام تنظم بموجبها العلاقات الزراعية بين المزارعين الذين يعملون في الأرض التي تمتلكها الدولة وتقوم بتأجيرها لمن يريد استثمارها من القبائل والأفراد، كما نظمت حقوق السقي والاستفادة من الماء [4].

الزراعة في القرآن الكريم:

ولما جاء الإسلام حث دستوره (القرآن الكريم) المسلمين على الزراعة وحرث الأرض والتصرف فيما تنبته الأرض من زروع وأشجار وثمار وأزهار قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 10-11]. ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 3-4]. ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس: 33-34]، فالذين يتفكرون في النباتات وحرثها وزراعتها ويتعمقون في بحثها وفحصها يصلون إلى أسرار وآيات تشهد بعظمة مبدع الكون، والإسلام دين الجهد والجهاد والعقل والتدبر [5].

وقد أفرد القرآن الكريم الكثير من مفردات علم النبات والزراعة ووسائلها، فمثلًا أورد حقيقة علمية على جانب كبير من الأهمية العلمية حينما قرر القرآن في سورة الحجر الآية 22 قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾، وهذا ما اكتشفه علماء النبات بعد ذلك بقرون طويلة عندما قالوا: إن الرياح وسيلة من وسائل التلقيح في النباتات [6].

الزراعة في السنة النبوية:

وفي السنة النبوية الشريفة نجد أن هناك الكثير من الأحاديث التي تحث على الزراعة وفلاحة الأرض منها: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة». يقول الإمام الشنقيطي: قال العيني: وفي الحديث أن الغرس والزرع واتخاذ الصنائع مباح وغير قادح في الزهد، وفيه أيضا الحض للمسلم على عمارة الأرض لنفسه ولمن يأتي بعده، وفي الحديث أيضا أن الزراعة والغرس من أفضل المكاسب [7]، إذن العمل بالزراعة عبادة إلى جانب أنها كسب شريف.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه».

اعتناء المسلمين بالزراعة:

وعلى نهج القرآن وهدي الرسول صلى الله عليه وسلم سار المسلمون فتركوا لنا آثارًا كانت الشرارة الأولى في بناء حضارة العالم، من ذلك ما روي من أن يزيد بن مسيلمة كان يغرس في أرضه، فقال له عمر رضي الله عنه: «أصبت، استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم». وروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه قال: «ازرعوا على الأرض بنصفها، بثلثها، بربعها .. إلى عشرها ولا تدعوا الأرض خرابًا [8].

وكان لانتشار الإسلام أن ساد الوفاق بين القبائل العربية وأخذ بعضها يستقر إلى جوار القرى والمدن، وأصبحت الحاجة ملحة لتوافر كميات من المواد الغذائية في تلك المجتمعات، لذلك قام الرسول صلى الله عليه وسلم بحض الناس على الزراعة فقال: «التمسوا الرزق في خبايا الأرض»، كما بشر الزارعين بأجر جزيل عند الله عز وجل.

اهتمام الخلفاء الراشدين بالزراعة:

وقد عمل كثير من الصحابة في الزراعة، واشتهرت المدينة المنورة بمزارعها وبساتينها، والقطع النبي صلى الله عليه وسلم رجالًا من أصحابه الأراضي الواسعة ليعمروها ويزرعوها ويستثمروها، ومن هؤلاء: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وعمر بن الخطابرضي الله عنه الذي أعطى أرضًا نفيسة بخيبر، ومنهم ربيعة الأسلمي، وأعطى أبوبكر رضي الله عنه في خلافته أرضًا زراعية لطلحة بن عبيد الله، وأرضًا أخرى لعبينة بن حصن، وأرضًا ثالثة للزبير بن العوام.

وتوسع عمر في توزيع الأراضي ليقوم الناس بإحيائها وزراعتها واستثمارها، فأعطى سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود والزبير بن العوام وعلي بن أبي طالب وأسامة بن زيد- رضي الله عنهم- وآخرين.. وكذلك فعل من بعده من الخلفاء (عثمان وعلي).

وكان الناس يزرعون أراضيهم بأنفسهم وأهليهم، أو يؤجرونها للزراعة والغراسة، أو يعطونها للزراع بالربع والثلث، قال موسى بن طلحة: رأيت سعدًا وابن مسعود وجبر بن عتيك يعطون أرضهم بالثلث والربع، وكانت بعض المزارع والبساتين تحمل في السنة مرتين، وكان يزرع فيها أنواع الحبوب وأصناف الثمار المعروفة وقتذاك، ويذهب بها إلى سوق المدينة المنورة، وأسواق الأماكن المجاورة [9].

الزراعة في العصر الأموي:

وفي العصر الأموي ولما استتب الأمر لبني أمية أمر الولاة بمسح الأرض الزراعية لجباية الخراج والزكاة، وقاموا بشق الترع وإصلاح المجاري وتشجيع الزراعيين على إحياء الأرض البور، وقد اشتهر زياد بن أبيه بأنه كان يقطع للرجل قطعة من الأرض ثم يمهله مدة عامين، فإذا أصلحها واستثمرها أصبحت ملكًا له وإلا استردها منه، وقد ازدادت في زمن الأمويين زراعة أنواع الحبوب والقطن وقصب السكر، كما ازداد غرس الأشجار المثمرة كالكرمة والزيتون والنخيل، وفي العصر الأموي أيضا بدأ إنشاء الحدائق والبساتين، فشيد الخليفة هشام بن عبد الملك سد طريقة وبجواره عدد من البساتين للثمرة، وفي العصر الأموي كذلك أقام الحجاج بن يوسف الثقفي الترع والجسور وأنشأ القنوات واستصلح الأراضي البور وزاد من الرقعة الزراعية في دولة بني أمية [10].

الزراعة في العصر العباسي:

وفي العصر العباسي، ولازدهار ورخاء الحياة ظهرت الزراعة البستانية لتزيين القصور، وحينما بنى المعتصم مدينة سامراء لم يفته كما يقول اليعقوبي العناية بإنشاء الحدائق الغناء والبساتين، يقول المستشرق رامبو: لم يكن في عصر العباسيين أهم من مهنة الفلاحة، فقد أظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الفرس وأزهار إقليم زندران، وقد أغنوا العلم -ولاسيما علم النباتات- بمسائل جديدة كثيرة.

لقد أصبح العرب في العصر العباسي أول العارفين بالزراعة وأحسن العمال، وأصبحت الزراعة التي أخذوها من أساليب بابل والشام ومصر علمًا حقيقيًا للعرب أخذوا نظرياتها من الكتب ثم وسعوها بتدفقاتهم وتجاربهم وكانوا يطبقونها بمهارة، ولا تستنكف أعلى الطبقات عن العمل بأيديهم في زراعة الأرض، وكان غيرهم يحفرها ويعدها عملًا مهنيًا، وقد روى دوزي أن ابن الخطيب لم يكتسب من غير الفلاحة مالًا، وقد أقام من أعمال العمران ما يحسده عليه أعظم طواغيت الزمان [11].

وفي العصر العباسي أيضا كان هناك اهتمام بالفلاحة العلمية التجريبية، فلم يعتمدوا فقط على النظريات الزراعية بل تابعوا العملية العلمية الزراعية من أولها إلى آخرها بدءًا بالحرث وإعداد الأرض والعناية بالزروع ثم الحصاد والتخزين ومعالجة الآفات والأمراض، ثم تصنيع المزروعات، وبرع العرب في تخير الأرض ثم استنباط المياه لأنها أساس العمل الزراعي [12].

الزراعة العربية في المغرب العربي والأندلس:

كانت الأندلس والمغرب العربي متخلفين علميًا وحضاريًا عن مشرق العالم الإسلامي في مجال الزراعة حتى أول القرن التاسع للميلاد، ولما تولى الخلافة عبد الرحمن الناصر سعى إلى تدارك هذا القصور، وذلك بإرسال البعثات العلمية إلى الشرق العربي للدراسة في بغداد ودمشق والقاهرة، وجلب الكتب المؤلفة والمترجمة إلى العربية، وكانت هذه البعثات بداية لنهضة علمية زراعية في الأندلس حتى ظهر في الأندلس علماء أجلاء قاموا على علم وأدخلوا الجديد في الطرق الزراعية.

وفي تلك الأثناء ظهرت مدرستان في علم الزراعة في الأندلس:

الأولى.. اهتمت بعلم العقاقير والنباتات الطبية، وكان من روادها ابن جلجل وابن وافد وابن سمجون والغافقي وابن ميمون وابن البيطار.

والمدرسة الثانية، اهتمت بعلم الفلاحة والنبات، وكان من روادها ابن بصال الطليطلي وابن حجاج الأشبيلي والحاج الغرناطي وابن العوام والشريف الإدريسي وأبوعباس النباتي، ثم حدثت نهضة غير مسبوقة في الأندلس في هذا المجال فعمرت المدن وكثرت الخيرات وانتشر العلم حتى كان في قرطبة وحدها دكان نسخ واحد يستخدم مائة وسبعين جارية في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة، وكان في قصر الخليفة أربعمائة ألف كتاب صنفت في شتى العلوم جميعها [13].

يقول رتشارلس سيتوبوس في كتابه تاريخ الحضارة: جرى أمراء العرب على أصول إسقاء الأرض بفتح الترع، فحفروا الآبار وجازوا بالمال الكثير ممن عثروا على ينابيع جديدة، ووضعوا المصطلحات لتوزيع المياه بين الجيران، ونقلوا إلى أسبانيا أسلوب الذواعير لتمنح المياه والسواقي التي توزعها، وإن سهل «بلنسية» الذي جاء كأنه حديقة واحدة هو من بقايا عمل العرب وعنايتهم بالسقيا، كما أن العرب استعملوا جميع أنواع الزراعة التي وجدوها في مملكتهم وحملوا كثيرًا من النباتات إلى صقلية وأسبانيا، وربوها في أوروبا فأحسنوا تربيتها حتى لتظنها متوطنة وذلك مثل الأرز والبطيخ والقنب والمشمش والبرتقال والكبار والنخيل والليمون والزعفران والبطيخ الأصفر والعنب والعطر والورد الأزرق والأصفر والياسمين بل والقطن والقصب [14].

الرفق بالحيوان .. من مبادئ الإسلام

كانت الإنسانية حتى العصر الحديث لا ترى أنّ للحيوان نصيبًا من الرّفق، أو حظًا من الرحمة، ولا تزال بعض الأمم المعاصرة تلقي بفتل الحيوان في أعيادها ومجال أفراحها ورياضتها، وهنا تبرز حضارتنا في مبادئها وواقعها بثوب من الرّحمة والشعور الإنساني المرهف لم تلبسه حضارة من قبلها، ولا أمة من بعدها حتى اليوم، ذلك هو الرّفق بالحيوان والرّحمة به، رحمة تلفت النظر، وتدعو إلى العجب والدّهشة، وإليكم بعض الأحاديث عن هذا.

أول ما تعلنه مبادئ حضارتنا في مجال الرّفق بالحيوان، أن تقرّر أن عالم الحيوان كعالم الإنسان، له خصائصه وطبائعه وشعوره؛ ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: 38]، فله حق الرّفق والرّحمة كحق الإنسان: «الراحمون يرحمهم الرّحمن»[1]، و«من أعطي الرّفق فقد أعطي حظه من خير الدّنيا والآخرة»[2]؛ بل إن الرحمة بالحيوان قد تدخل صاحبها الجنة: «بينما رجل يمشي بطريق إذ اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماءً، ثم أمسكه بفيه حتى رقي فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له»، قالوا: يا رسول الله: وإنّ لنا في البهائم لأجرًا؟ فقال: «في كل ذات كبد رطبة»[3].

كما أن القسوة على الحيوان تُدخل النار: «دخلت امرأة النار في هرّة، ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[4].

وتمضي الشريعة في تشريع الرحمة بالحيوان:

- فتُحرّم المكث طويلًا على ظهره وهو واقف: فقد قال عليه الصّلاة والسلام: «لا تتّخذوا ظهور دوابكم كراسي»[5].

- وتحرم إجاعته وتعريضه للضّعف والهُزال: فقد مرّ عليه السلام ببعير قد لصق ظهره ببطنه، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»[6].

- كما تحرم إرهاقه بالعمل فوق ما يَتحمّل: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بستانًا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح دموعه، ثم قال: «من صاحب هذا الجمل؟»، فقال صاحبه: أنا يا رسول الله، فقال له عليه الصّلاة والسلام: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها، فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه»[7]، أي: تتعبه بكثرة استعماله.

- كما يحرم المُثلي به في الصيد: «من قتل عصفورًا عبثًا، عجّ إلى الله يوم القيامة، يقول: يا ربّ، إنّ فلانًا قتلني عبثًا، ولم يقتلني منفعة»[8].

- واتخاذه هدفًا للتعليم الإصابة: فقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتخذ شيئًا فيه الرّوح غرضًا [9] أي: هدفًا.

- وتنهى عن التحريش بين الحيوانات ووسمها في وجوهها بالكي والنار، أي: كيّها لتعلم من بين الحيوانات الأخرى: فقد مرّ الرسول صلى الله عليه وسلم على حمار قد وُسم في وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسمه»[10].

أمّا إذا كان الحيوان مما يُؤكل، فإنّ الرحمة به أن تحدّ الشفرة، ويُسقى الماء، ويُراح بعد الذبح قبل السلخ «إنّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحدّ أحدكم شفرته، وليُرح ذبيحته»[11].

بل إنّ إضجاع الحيوان للذبح قبل إحداد الشفرة قسوة لا تجوز: أضجع رجل شاة للذبح، وهو يحد شفرته، فقال له عليه السلام: «أتريد أن تميتها موتتان؟!

هلاّ أحددت شفرتك قبل أن تضجعها»[12].

واسمعوا ما أروع هذه الرّحمة بالحيوان وأبلغ دلالتها على روح حضارتنا: قال عبدالله بن مسعود: «كنا مع رسول الله في سفر، فرأينا حمرة، أي: طير يشبه العصفور، معها فرخان لها، فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرّش، أي: ترفرف بجناحيها، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها»، ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: «من أحرق هذه؟»، قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يُعذب بالنار إلا ربّ النار»[13].

وعلى ضوء هذه التعاليم يُقرّر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر على البال: فهم يُقرّرون أن النفقة على الحيوان واجبة على مالكه، فإن امتنع أجبر على بيعه أو الإنفاق عليه، أو تسييبه إلى مكان يجد فيه رزقه وماءه، أو ذبحه إذا كان مما يُؤكل.

هذه هي مبادئ الرّفق بالحيوان في حضارتنا وتشريعنا، فكيف كان الواقع التطبيقي لها؟

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض سفره، إذ سمع امرأة من الأنصار تلعن ناقة لها، وهي تركبها، فأنكر ذلك عليها وقال: «خذوا ما عليها، ودعوها فإنها ملعونة». وأخذت الناقة وتركت تمشي في الناس لا يعرض لها أحد[14].

مرّ عمرُ برجل يسحب شاة برجلها ليذبحها، فقال له: «ويلك، قدها إلى الموت قودًا جميلًا».

وهكذا كان طابع حضارتنا: رفقًا بالحيوان، وعناية به من قبل الدولة والمؤسسات الاجتماعية.

أما عناية الدولة، فليس أدل على ذلك من أن خلفاءها كانوا يُذيعون البلاغات العامة على الشعب يُوصونهم فيها بالرّفق بالحيوان، ومنع الأذى عنه، والإضرار به؛ فقد أذاع عمر بن عبدالعزيز في إحدى رسائله إلى الولاة أن ينهوا الناس عن ركض الفرس في غير حقّ، وكتب إلى صاحب السكك وهي وظيفة تشبه مصلحة السير ألا يسمحوا لأحد بالجام دابّته بلجام ثقيل، أو أن يَنخسها بمقرعة في أسفلها حديدة.

وكان من وظيفة المحتسب -وهي وظيفة تشبه في بعض صلاحياتها وظيفة الشرطي في عصرنا الحاضر-: أن يمنع الناس من تحميل الدوابّ فوق ما تطيق، أو تعذيبها وضربها الشاء السّيّر، فمن رآه يفعل ذلك أدّبه وعاقبه.

وأمّا المؤسسات الاجتماعية، فقد كان للحيوان منها نصيبٌ كبير، وحسبنا أن نجد في ثبت الأوقاف القديمة أوقافًا خاصّة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافًا لرَعْي الحيوانات المسنّة العاجزة.

وهذا كله يدلّك على رُوح الشّعب الذي بلغ من الرّفق بالحيوان إلى هذا الحدّ، وهو ما لا تجد له مثيلًا، ولعل أصدق مثال عن رُوح الشعب في ظل حضارتنا، أن ترى صحابيًا جليلًا كأبي الدّرداء يكون له بعيرٌ، فيقول له عند الموت: «يا أيها البعير، لا تخاصمني إلى ربّك؛ فإني لم أكن أحملك فوق طاقتك»، وأن صحابيًا كعدي بن حاتم كان يفتّ الخبز للنمل، ويقول: «إنهن جارات لنا، ولهنّ علينا حقّ»، وأن إمامًا كبيرًا كأبي إسحاق الشيرازي كان يمشي في طريق ومعه بعض أصحابه، فعرض له كلب فزجره صاحبه، فنهاه الشيخ، وقال له: «أما علمت أنّ الطريق مشترك بيننا وبينه؟!».

ولا نستطيع أن نُقدّر هذه الظاهرة البارزة في حضارتنا وموقفها الإنساني الكريم مع الحيوان، إلا إذا علمنا: كيف كان يعامل الحيوان في العصور القديمة والوُسطى؟ وكيف كان موقف الأمم منه، من جناياته وتعذيبه؟

وأول ما يلفتُ النظر في ذلك أنك لا تجد في تعاليم تلك الشعوب ما يحمل على الرّفق بالحيوان، ووجوب الرحمة به، ومن ثَمّ فلا تجد له حقوقًا على صاحبه من نفقة ورعاية.

ويلفت النظر بعد ذلك أخذ الحيوان بجنايته إذا جنى أو جنى صاحبه، ومعاملته في المسؤولية كمُعاملة الإنسان العاقل المفكر، وهذا أغرب ما تضمّنته تاريخ العصور القديمة والوُسطى حتى القرن التاسع عشر! فقد كان الحيوان يحاكم فيها كما يحاكم الإنسان، ويُحكم عليه بالسجن والتشريد واللوت، كما يحكم على الإنسان الجاني تمامًا.

وبعد، فهذا هو موقف حضارتنا من الحيوان، وموقف غيرنا من الأمم منه، ومنها يتضح أن حضارتنا امتازت بأمرين لا مثيل لهما عند الأمم القديمة وبعض الأمم الحديثة اليوم:

أولهما: إقامة مؤسسات اجتماعية للعناية بالحيوان وتطبيبه، وتأمين معيشته عند العجز والمرض والشيخوخة.

ثانيهما: أن حضارتنا خلتْ من محاكمة الحيوان! لأنها نادتْ برفع المسؤولية الجنائية عنه قبل ثلاثة عشر قرنًا من مناداة الحضارة الحديثة بذلك، كما أن حضارتنا خلتْ من مظاهر القسوة والتحريش بين الحيوانات، وهي التي كان معترفًا بها رسميًا لدى اليونان والرومان، ولا تزال معترفًا بها في إسبانيا: حيث تقام الحفلات الكبرى لمصارعة الثيران، وهي بلا شك وحشية من بقايا وحشية الغربيين القدماء وفي العصور الوسطى، وقد تنزهت عنها حضارتنا.

المؤسسات الخيرية:

ليس أدل على رُقيّ الأمة وجدارتها بالحياة واستحقاقها لقيادة العالم، من سُمو النزعة الإنسانية في أفرادها سموًا يفيض بالخير والبر والرحمة على طبقات المجتمع كافة، بل على كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان، وبهذا المقياس تخلد حضارات الأمم، وبآثارها في هذا السبيل يفاضل بين حضارتها ومدنياتها.

وأمتنا بلغتْ في ذلك الذروة التي لم يصل إليها شعب من قبلها على الإطلاق، ولم تلحقها من بعدها أمة حتى الآن، أما في العصور الماضية، فلم تعرف الأمم والحضارات مثالين للبر إلا في نطاق ضيق، لا يتعدى المعابد والمدارس، وأما في العصور الحاضرة فإنّ أمم الغرب -وإن بلغت الذروة في استيفاء الحاجات الاجتماعية عن طريق المؤسسات الاجتماعية وعن طريق المؤسسات العامة- لكنها لم تبلغ ذروة السُمو الإنساني الخالص لله - عز وجل - كما بلغته أمتنا في عصور قوتها ومجدها، أو عصور ضعفها وانحطاطها.

إنّ لطلب الجاه أو الشهرة أو انتشار الصيت أو خلود الذكر - الأثر الأكبر في اندفاع الغربيين نحو المبرّات الإنسانية العامة، بينما كان الدافع الأول لأمتنا على أعمال الخير ابتغاء وجه الله سواء علم الناس بذلك أم لم يعلموا، وشيء آخر: أن الغربيين في مؤسساتهم الاجتماعية كثيرًا ما يقتصر الانتفاع بها على أبناء بلادهم، أو مقاطعاتهم، بينما كانت مؤسساتنا الاجتماعية تفتح أبوابها لكل إنسان على الإطلاق، بقطع النظر عن جنسه أو لغته أو بلده أو مذهبه، وفارق ثالث: أننا أقمنا مؤسسات اجتماعية لوُجوه من الخير والتكافل الاجتماعي، لم يعرفها الغربيون حتى اليوم، وهي وجوه تبعث على العجب والدّهشة، وتدل على أن النزعة الإنسانية في أمتنا كانت أشمل وأصفى وأوسع أفقًا من كل نزعة إنسانية لدى الأمم الأخرى، وقبل أن نفيض في الحديث عن تعدد وجوه البرّ في المؤسسات الاجتماعية في عصور حضارتنا يجب أن نلمّ بمبادئ حضارتنا في هذا الميدان، وهي المبادئ التي عملتْ عملها في نفوس أمتنا فدفعتها إلى إنشاء هذه المؤسسات دفعًا، لا تعرف له مثيلًا في أمم أخرى.